



المدخل إلى علوم التربية

عبد الكريم أطرحات

مقدمة عامة حول مفهوم علوم التربية

ظهرت النواة الأولى لاصطلاح «علوم التربية» في أوروبا سنة 1812م، عندما نشر الباحث الفرنسي «marc-antoine julien de paris» كتابه «أساس الطريقة البيداغوجية لدى بيستالوزي» وفي سنة 1816م، قدّم نفس الباحث شرحا وافيا لهذا الاصطلاح الجديد في معرض حديثه عن التربية المقارنة. وفي نفس السياق، ظهر كتاب جديد بعنوان «علوم التربية» من توقيع الباحث الانجليزي alexander bain الذي تمّت ترجمت كتابه إلى اللغة الفرنسية سنة 1879م، من طرف «gabriel compayre». ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (1887م) شرعت كلية الآداب بفرنسا في تنظيم دروس تكميلية خاصة في علوم التربية والبيداغوجيا تحت إشراف henri marion» الذي يعتبر أول أستاذ لمادة «علوم التربية بفرنسا (1887م) حيث ألحّ على الدور الأساسي الذي تقوم به فلسفة التربية في الحقل التعليمي لكونها تفسح المجال أمام الباحثين لوضع مقارنات دقيقة حول المنظومات التربوية، لذلك اعتبر «علم التربية» علما تطبيقيا يختلف عن علم الرياضيات والفيزياء لكنّه يقترب من العلوم الأخلاقية والسياسية من حيث الموضوع والمصادر المتعددة (1) وفي سنة 1902م، عيّن «emille durkheim» بجامعة «السوربون» لتقديم مقاربة سوسيولوجية للفعل التربوي حيث اعتبر أن الممارسة الاجتماعية هي التي تحدد موضوع التربية، ومن تمّ وجب على علم الاجتماع أن يسعى إلى فهم طبيعة ونوعية المؤسسات التربوية وغاياتها الاجتماعية. وبغض النظر عن ما يحمله مصطلح «علوم التربية» من تحديات ومواصفات مختلفة، فإن البدايات الفعلية لنشأة المفهوم ارتبطت بالرغبة في إعادة



النظر في طرق التكوين البيداغوجي والمهني للأساتذة العاملين في الحقل التربوي على ضوء المستجدات العلمية التطبيقية ، لكن يبدو أن هذه الرغبة تعاملت مع موضوع علوم التربية بنوايا ايديولوجية معقدة تتوق إلى تعزيز سلطة التربية وتوطيد آليات العلاقات الاجتماعية مثلما حدث في المجتمع الفرنسي، وعليه عجزت «علوم التربية» عن تقديم مقاربة مقنعة للواقع التعليمي. وبوفاة «durkheim» تراجع درس «علوم التربية» بالجامعات الفرنسية خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى، لكن مع ذلك تأسست مجموعة من المراكز المهتمة أو المتخصصة في «علوم التربية» مثل : معهد «جون جاك روسو» بسويسرا (1912م) و«معهد البيداغوجيا» بباريس (1920م) و«المدرسة التطبيقية للبيداغوجيا والبيداغوجيا» بليون (1945م). أما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد بدأت شرعية «علوم التربية» تتقوى بعدما أقر النظام التعليمي الفرنسي (1966-1967) بخلق شهادة الإجازة والمتريز في شعبة «البيداغوجيا». ومع ظهور الحاجة إلى الرفع من أداء المؤسسات التعليمية والتربوية ، ازداد الإقبال على درس «علوم التربية» في الجامعات الأوروبية (2).

وإذا انتقلنا إلى الثقافة البريطانية ، سنلاحظ شيوع عبارة «دراسة التربية» studies of education بدل من عبارة «علوم التربية» بالرغم من ظهور الاهتمام المبكر بالبيداغوجيا من طرف الجامعات الاسكتلندية منذ سنة 1872م. وقد عرفت «دراسة التربية» مراحل مختلفة في بريطانيا: فمن سنة 1820م إلى سنة 1914م اهتمت الجامعات بتطوير التعليم الثانوي على ضوء المراجع النظرية المستوحاة من الفيلسوف الألماني herbart» كما استحدثت شعب أساسية في تاريخ التربية والسيكولوجيا والطفولة، ومن ثم تأثرت المحتويات التربوية بالجوانب التقنية المرتبطة بقياس الذكاء. وبعد الحرب العالمية الثانية تنامى الإقبال على الدراسات التربوية خصوصا مع أواسط الستينات التي عرفت تطورا في البحث التربوي المعتمد على منظور العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ... وعليه توجّهت الدراسات التربوية نحو قراءة وفحص فعل التدريس وفق تصورات سوسيولوجية التربية.

أما في ألمانيا، فقد استعمل مفهوم البيداغوجيا في البداية للدلالة على التكوين المستقبلي للمدرسين، لكن بعد ذلك سيعرف اصطلاح «علوم التربية» حضورا بعد إنشاء كراسي جامعية للبيداغوجيا منذ سنة 1912م. كما ستتطور فلسفة التربية والبحث التربوي وسيزداد الإقبال على درس «علوم التربية» وسيرتفع عدد المدرسين والمهتمين بعد الحرب العالمية الثانية ، في حين سيتجه البحث نحو العمل على إقامة مقارنة بين وضعية علوم التربية بألمانيا وفرنسا (3)



انطلاقاً من هذا المدخل التاريخي المؤطر لولادة اصطلاح "علوم التربية" يمكن تلمّس بعض الدلالات التي تفيدنا في رسم الحدود والوظائف والعلاقات التي يتميز بها هذا الاصطلاح، وعليه يمكن حصر الحقل المفاهيمي للمصطلح في التحديدات والتعريفات التالية :

- مادة للتعليم والبحث في جميع الظواهر التربوية.
- معارف نظرية وتطبيقية حول الممارسة التربوية.
- نشاط عقلي يدرس الوجود التربوي الفعلي.
- تصور معياري حول الحياة التربوية الخاصة والعامة.
- مجال تأملي يرتبط بالفعل التربوي.
- الدراسة المنهجية والبحث العقلي حول التربية.
- موضوع تفكير وتأمل حول سيرورة التربية والتكوين.
- نظرية تطبيقية توجه الفعل التربوي.
- حقول معرفية تدرس الوقائع والأفعال التربوية ضمن سياق معين.
- علوم تدرس مجموعة من الظواهر والوضعية التربوية.
- معرفة مشتركة بين مجموعة من العلوم التي تدرس شروط الوجود الإنساني.
- علم تطبيقي يندرج ضمن العلوم الإنسانية.
- فرع من علوم المجتمع والإنسان.

لعلّ المتأمل لهذه التعريفات والتحديدات المختلفة يلمس بوضوح مدى اتساع الحقل الاستيمولوجي الخاص باصطلاح "علوم التربية" الذي يؤدي إلى بروز العديد من الإشكالات المرتبطة بموضوع ومنهج هذا الحقل المعرفي المستحدث ومكانته ضمن صنف العلوم المختلفة، لكن أول ما يلفت الانتباه في هذا السياق، هو التساؤل عن ما يميز "علوم التربية" عن غيرها من العلوم الأخرى؟

من الواضح أنّ علوم التربية تتميز بتعدد الحقول والمسالك المعرفية وتداخل مجموعة من المجالات والطرق والمناهج لذلك يصعب الحديث عن «علوم التربية» بصيغة المفرد نظراً لتعدد مظاهر النشاط الإنساني، غير أنّ الإشكال لا يرتبط أساساً بخاصية التعدد الملازمة لمكونات



علوم التربية فقط، بل يتعداه إلى ضرورة التفكير في كيفية بناء الانسجام بين مختلف الحقول والمجالات وفق مقارنة متعددة المستويات و المرجعيات تماشياً مع خصوصية الفعل التربوي في مظاهره الصريحة والضمنية، وعليه اعتبر هذا المنظور الابستمولوجي تصوراً خاصاً بعلوم التربية. وبغض النظر عن طبيعة هذا النقاش العلمي القائم حول تأرجح علوم التربية بين الوحدة والتعدد، فإن المميزات النوعية لهذا التخصص المعرفي ينبغي أن تنهض على التحديد الدقيق للمباحث التربوية المدروسة بما في ذلك الطرق والمناهج المستعملة، ومن ثم يمكن توزيع الأقطاب والمحاور التي تتناولها علوم التربية في الظواهر التالية:

1 - ظواهر تربوية كبرى تتصل بالقيم الاقتصادية والتاريخية والمؤسسية و الاستراتيجية ذات الطابع الغائي و القصدي التي تسعى إلى تحديد المواصفات المطلوبة لمجتمع الغد على ضوء التأمل الفلسفي والتفكير السياسي .

2 - ظواهر تربوية صغرى ترتبط بالحقول المعرفية ذات الصلة بالعلوم الإنسانية والتجريبية التي تساعد على تحديد العمليات السيكلوجية والتواصلية المتعلقة بسيرورة التعلم.

3 - ظواهر نسقية نوعية تأخذ بعين الاعتبار مجموع التعقيدات والتحويلات والوسائل الممكنة لقراءة النشاط التربوي (4)

في الواقع، إن تعدد الظواهر المدروسة من طرف علوم التربية، يجعل من إشكالية الوحدة والتعدد قضية شكلية بالنظر إلى تنوع وتعقد خبايا الشخصية الإنسانية، ومما لاشك فيه، أن تطور الهندسة الوراثية وغيرها من العلوم المختلفة (علم النفس المعرفي...) سيساعد على توضيح بعض آليات التعلم والذكاء واللغة... كما سيفسح المجال لاجتهادات الباحثين الديداكتيكيين في صنّافة علوم التربية. وفي سياق هذه الإشكاليات، ينبغي التمييز بين عدة أنواع من الصنّافات المتعلقة بعلوم التربية الشيء الذي يؤكد بوضوح مدى تداخل الحقول والمراجع المعرفية والمنهجية المكونة لبنية النسق التربوي، ونتيجة لذلك تعددت معايير التصنيف تبعاً لنوعية وطبيعة التدخل التربوي والنشاط السلوكي والغايات المستهدفة... ومن أهم الصنّافات المتداولة، نقترح ما يلي :

1 - صنّافة علوم التربية بفرنسا (1967)

ذكرنا سابقاً أنّ النظام التعليمي الفرنسي استحدث شهادة التبريز في علوم التربية، وقد كان وراء هذه المبادرة الباحث «maurice debesse» الذي ساهم في بلورة الأسس الأولية لصنّافة



علوم التربية معتبرا أن هذه المادة تهتم بجميع الموضوعات المتعلقة بالتربية. وتتأسس صنّافة علوم التربية بفرنسا على ضوء مجموعة من المعطيات المختلفة ذات الصلة بخصوصية المجتمع الفرنسي وموقعه الحضاري، ومن أهم عناصر ومواد هذه الصنّافة نذكر ما يلي :

7 - تكوين الراشدين	1 - اقتصاديات التربية
8 - تربية ذوي الاحتياجات الخاصة	2 - سوسولوجيا التربية
9 - تكوين المكونين	3 - التربية المقارنة
10 - الفشل الدراسي 11	4 - فلسفة التربية
11 - التكوين المهني و المقاولاتي... (5)	5 - تاريخ التربية
	6 - ديداكتيك المواد

ومع تطور مجالات العلوم والحياة، أضيفت مجموعة من الحقول المعرفية والمواد الدراسية لهذه الصنّافة انسجاما مع حركية البحث التربوي بصفة خاصة والبحث العلمي بصفة عامة.

2 - صنّافة كلية علوم التربية بالمغرب:

تتحدّد صنّافة كلية علوم التربية بالمغرب انطلاقا من طبيعة ونوعية الشعب والمسالك والمواد الدراسية كما أنها تستجيب من الناحية التاريخية لتطلعات النخبة التربوية التي درست بالخارج وتمكنت من الإطلاع على الإنتاج التربوي الغربي، وأكّدت من خلال ممارستها للتدريس على أهمية التفكير بجدية في مجتمع الغد عن طريق الدعوة إلى خلق أشكال تواصلية جديدة من أجل إعادة النظر في طبيعة العلاقات التربوية السائدة في المؤسسة التعليمية، غير أن الإشكال الذي فرض نفسه على المهتمين بمجال التربية والتكوين بالمغرب يتمثل في العلاقة الملتبسة بين النظرية والممارسة : بين الوعي الممكن والوعي القائم ، بين ما يدرس وما يعيش... ولعل البحث التربوي في هذا السياق، اتجه نحو التجريب شأنه شأن بداية كل المحاولات الإصلاحية، لذلك اتسم الخطاب التربوي بنوع من الطوباوية الحاملة وسقط في سوء تقدير الفعل التربوي دون الاهتمام بخاصية التعدد الأسري والاجتماعي التي تميز شبكة العلاقات في المجتمع المغربي وتحدد سلم منظومة القيم السائدة. وفي خضم هذا السياق المثقل بأسئلة الاختيارات والتوجهات، حاولت الأطر التربوية الصاعدة بكلية علوم التربية الاعتماد على التصنيف التالي :



العلوم التطبيقية	العلوم المساعدة	العلوم النظرية
- منهجية تدريس العلوم الدقيقة	- تكنولوجيا التربية	- علم النفس التربوي
- منهجية تدريس العلوم الإنسانية	- الوسائل السمعية البصرية	- أسس التربية أو علم الاجتماع التربوي.
- منهجية تدريس اللغات	- الإحصائيات المطبقة على التعليم .	- الإدارة والتنظيم المدرسيان.
	- الإعلاميات التربوية	

عن الدكتور محمد الدريج (6)

3 - صانعة «ميالاري» «gaston mialaret»

انطلق «ميالاري» في تصنيفه لعلوم التربية من مبدأ التمييز بين ثلاثة شروط أساسية تحدد الوضعية التربوية: وهي الشروط العامة والشروط المحلية والشروط التربوية، وتبعاً لذلك يتطلب البحث العلمي التربوي تحديد الحقول المعرفية الملائمة لتلك الوضعيات والشروط ، وعليه يقترح «ميالاري» صانفة تتكون من ثلاثة أقطاب معرفية متنوعة تنسجم وخاصة التعدد التي تميز مكونات علوم التربية، وللتوضيح نقترح الجدول التالي:

الدراسة التأملية المستقبلية	دراسة العلاقات البيداغوجية والنشاط التربوي	دراسة الشروط العامة والمحلية للمؤسسة التعليمية
- فلسفة التربية	- فسيولوجيا التربية	- تاريخ التربية
- علوم التخطيط	- سيكولوجيا التربية	- سوسيولوجيا التربية
- نظرية المناهج	- علوم التواصل	- الديموغرافيا المدرسية
	- ديداكتيك تدريس المواد	- اقتصاديات التربية
	- علوم التقويم التربوي	- التربية المقارنة
	- دينامية الجماعات الصغرى	- اثنوغرافيا التربية
	- علوم الطرائق والمناهج	- الإدارة التربوية



4- صانفة أفانزيني «avansini guy»

يرتكز "أفانزيني" في صانفته لعلوم التربية على ثلاثة أقطاب تختلف عن الشروط التي اعتمدها "ميلاري" في تصنيفه السابق، وتمثل هذه الأقطاب في: الغايات والنشاط التعليمي و التعليمي، وتجسد هذه العناصر في نظر الباحث أساس الفعل التربوي لذلك ميّز بين مجموعة من العلوم والمقاربات ذات الصلة بالنسق التربوي، كما اقترح بعض الحقول المعرفية المنسجمة مع تصوره لعلم الصانفة في المجال التربوي، وباختصار نختزل مساهمة "أفانزيني" في الجدول الوصفي التالي (8)

الدراسة العلمية للفعل التعليمي	الدراسة المعيارية للفعل التربوي
- بيولوجيا التربية	- فلسفة التربية
- سيكولوجيا التربية	- جغرافية التربية
- سوسيولوجيا التربية	- التربية المقارنة
- اثنوغرافيا التربية	

-صانفة «أرتيو» S aretio l.g

حاول «أرتيو» أن يقدم تصنيفا لعلوم التربية على ضوء المعايير المتداولة في تصنيف العلوم المعاصرة، لذلك اعتمد على البعد المنهجي متجاهلا نصائح فلسفة العلوم التي تشدد على قاعدة «طبيعة الموضوع تحدد نوعية المنهج» لكن مع ذلك استطاع هذا الباحث الإسباني أن يقدم صانفة تركيبية تختزل أهم العلوم المتداولة، وفيما يلي جدول يلخص صانفة «أرتيو» لعلوم التربية (9)